

الفلسفة وأزمة المنهج، من النقد إلى البناء والتفكير لأجل الماهية عند إدموند

هوسرل

شهرزاد حمدي¹

Philosophy And the Crisis of Method, From Critic to Construction And Reflection For Essence According To Edmund Husserl

Chahrazad Hamdi

Abstract: Within the scope of the stronger review carried out by contemporary philosophical thought towards the disappointing outcomes of the modernist mentality of knowledge, sciences, and scientific and philosophical systems, it was subjected to the steps of the experimental method that controlled the course of epistemology, as the optimal method. As for philosophies, they witnessed a sterile methodological conflict. We evoke the critical vision of “**Edmund Husserl**”, so his author, tagged with: “the crisis of European sciences and transcendental phenomenology”, came as a vivid example of his opposing position on the method used, which represents the basis of empirical sciences to extend and include the human sciences. The crisis, then, is a crisis of method, followed, of course, by an epistemological crisis, and from it invoking the phenomenological method to solve this crisis, resurrect the reefs of meaning and seek to realize the essence. The main objective of this research paper is to confirm that the crisis of method, which constituted an occasion for philosophizing, is closely related to the philosopher, and history has recorded its continuous presence, and to show the dual philosophical work of criticism and construction, and to highlight the valuable contributions of Husserl in the field of philosophical methods. As for the methodological tools that we relied on, they are prominent in the analytical approach, the critical approach, and the activation of the approach in referring to some philosophical positions other than “**husserl’s**”. we have reached a number of important results, which are: the closely related relationship between philosophy and the crisis of the method, the method as a cause of the crisis and as a key to its solution, as a fertile field for critical thinking and analysis. The constant philosophical preoccupation with criticism and construction, as a distinct methodology that indicates that philosophy develops solutions and does not suffice to raise problems. In addition to the emergence of the phenomenological method as one of the most important contemporary philosophical methods, which “**Husserl**” guided for beign the most optimal method for solving the crisis, recovering the lost and searching for the essence.

Key Words: *Crisis, Rigorous science, Essence, Phenomenological method, Critic.*

¹ Lecture, Université Mohamed lamine Debaghine Setif2, Algeria.
chahrazedchiche@gmail.com

الحمد لله تعالى الذي علم بالقلم، الإنسان ما لم يعلم.

تضعف المواقف المضادة للفلسفة في كل مرة تتصاعد فيه موجة التأزم، وتجهض المحاولات التي تسعى إلى تعميم وجودها، وتصبح إعلانات موتها تسرع فاشل وتعتجل هش. فالفلسفة لا تموت بل تتراجع أحياناً فقط لعدة أسباب، لكن غيابها الكلي لم يوافق عليه التاريخ في جميع مراحلها، ثم إنها والأزمة تُشكّلان أطروحة قوية، متكاملة العناصر، فالإنسان الذي يتقدم كموضوع حي للفلسف دائماً، لصيق بالأزمة كفاعل ومفعول به، الأول في سببته والثاني في النتائج التي تعود عليه، مما أدى إلى التفكير الفلسفي الدؤوب في حياته ومنه أزماته. ويتعدى مجال التحليل النقدي الفلسفي للمدار الأزمي حقل الوجود والحياة، فيبرز مثلاً في حقل نظرية المعرفة والإبستمولوجيا والمناهج، بخاصة إشكال المنهج لنكون أمام الفلسفة وأزمة المنهج. ومن أهم الفلسفات التي شهدت تنوعاً منهجياً، نجد الفلسفة المعاصرة، التي جاءت كنقد واستمرارية بالفلسفة الحديثة، تماماً كما يفعل المخترق حينما يتغلغل ليفهم ويُحلل وينتقد، من ثم يطرح البديل، وهذا على خلاف المتجاوز. ومن بين هذه المناهج، نتوقف عند المنهج الظاهري مع الفيلسوف الألماني "إدموند هوسرل" **Edmund Husserl (1859_1938م)**، الذي اختاره بقناعة معرفية أنه السبيل لتغيير وضعية العلوم الأوروبية الحديثة بعد أن سجّل مزالق منهجية وقعت فيها، فالأزمة منهجية، مُنطلقاتها ومُفاتيحها وحللتها، ليُجسّد الانتقال المعهود من النقد إلى البناء ويُعلن عن مسعاه الجوهرية وما يُريده من خلال اعتماد هذا المنهج. ويفرض علينا الحسّ الاستشكالي ذاته على الدوام ونحن نخوض غمار الدروب البحثية الفلسفية، وعليه: وفقاً لرؤية "هوسرل"، فيم تتمثل تفاصيل أزمة المنهج الخاصة بالعلوم الأوروبية الحديثة؟ كيف جسّد الانتقال الوظيفي من المرحلة النقدية إلى المرحلة البنائية؟ وماهي خطوات المنهج الظاهري الموصلة إلى تحقيق مسعى إدراك الماهية؟

وبما أن الفرضية أفكار مُسبقة في انتظار التأكيد أو التفنيد بعد البحث، فإننا نطرح مجموعة منها:

- عُمق أزمة العلوم الأوروبية الحديثة وارتباطها مباشرة بفساد المنهج.
- النتائج المثيرة لعملية الانتقال الفلسفي المعهود من النقد إلى البناء.
- وعي "هوسرل" بأزمة فقدان المعنى كنتيجة لأزمة المنهج، واهتدائه إلى المنهج الظاهري من أجل الاسترجاع وتصويب المسار وتداعياته.
- البحث عن الماهية بما هي صميم المنهج الظاهري ومُعانة مُستخدمه.
- ولقد رافق هذا البحث، مجموعة من الأهداف ناشدنا تحقيقها، مُوزعة في النقاط التالية:
- الإثبات بالدفاع على التداخل القوي بين الفلسفة وأزمة المنهج.
- التصميم على تأكيد التميّز الفلسفي في العمل على مرتين؛ النقد والبناء.

— إبانة قيمة الجهود التي فعلها "هوسرل" في سياق المناهج الفلسفية عامة والمعاصرة بشكل خاص. أما فيما يخص منهجيته، فتضمّن البحث ثلاثة عناصر رئيسية، العنصر الأول بعنوان: الأزمة؛ مُسبباتها وتجلياتها، والعنصر الثاني تحت عنوان: خطوات المنهج الظواهرى، والعنصر الثالث حول: امتداداته في الفكر العربى المعاصر، وقد احتوى كلّ عنصر عناصر شارحة له ما عدا العنصر الأخير.

1. الأزمة، مُسبباتها وتجلياتها

لقد عوّدتنا الشريحة الفلسفية أن تشرع بالنقد والفحص والتشريح قبل تقديم الحلول وصياغة البنى المنهجية والمعرفية الجديدة كمنخرج من متاهة التأزم، فالمواقف النقدية التي تُفكّك الأزمة وتُسلّط الضوء على عللها وتمظهراتها من المهام الجوهرية للفيلسوف لتتبعها مهمّة البناء ككلّ مركّب لا يُمكن الاستغناء عن أيّ منهُمّا. تمامًا، تمامًا سيفعل "إدموند هوسرل" في سياق حملته النقدية بُحّ أزمة العلوم الأوروبية، وستتقدّم المساءلة بداية لتسأل عن السبب وتُسائله.

1.1 رؤية العالم المادية وأزمة المعنى

لقد عبّرت كلّ مرحلة زمنية من الزمن الفلسفي عن رؤية العالم، تحكّمت فيها جملة شروط مادية ومعنوية، من تاريخية وثقافية واقتصادية وغيرها، كانت بمثابة الزاوية الوحيدة التي يُنظر من خلالها إلى العالم وعناصره، وحددت طبيعة هذه الرؤية إن كانت مادية طبيعية خالصة، أو معنوية روحية بحثة، وإن كان التطلّع المأمول المرتقب، يتعيّن في إحلال رؤية تركيبية تكاملية. ومن هذه المراحل الزمنية لنا وقفة مع فترة العصر الحديث؛ أين تم نسج رؤية مادية فجّرت أزمة فقدان المعنى وتسيّبت في إفقار العالم من الدلالات الحية. وانطلاقًا من هذه النتيجة المأزومة، انبعثت المناسبة للحديث عن أزمة أوروبية كما جاءت في توصيف "هوسرل"؛ حيث وفي خضمّ الإطار الزمني 1935_1936م، وفي الوقت الذي كانت فيه أوروبا تُعاني من أزمة اقتصادية وأخلاقية كبيرة، نشر حينها كتابه: أزمة العلوم الأوروبية، أصرّ على التأكيد في هذه الدراسة على أن مردّ أزمة الضمير الأوروبي ترتدّ في شطرٍ كبيرٍ منها إلى التطوّر الأعمى للعقلية العلمية. فالواقع يُشير بوضوح في تلك الفترة إلى أن العلوم القائمة آنذاك كانت تقدّم نظرة رياضية وموضوعاتية محضة للطبيعة، وبالتالي فهي تُفرغ العالم وتُفقّر الطبيعة والحياة من كلّ دلالة (دورتيي، 2009، صفحة 44). إن العقلية العلمية الأحادية المنظور لا تُقرّ سوى بالبُعد المادي ولا تأخذ إلاّ بالمناهج الكميّة والحسابية والعديدية في نفى منها لأيّ بُعد معنوي أو جانب فوق الحسّ العياني، وبالرغم من أهمية المعاني والدلالات فإنها برؤيتها العمياء تقتلها ممّا يحيل إلى حياة جوفاء خالية من إشباع دلالي يبعث الحيّ والكياني. من هنا تكوّن الباعث الجوهري لدى "هوسرل" لإعلان حالة الأزمة، التي تعود إلى منهج في التفسير أطبقت عليه الرؤية المادية الاختزالية، ويقترب هذا التعليل للأزمة في كثير من تفاصيله إلى أطروحة نقد براديجم التبسيط Paradigm of simplification والدعوى إلى تبني براديجم التعقيد والفكر المركب Paradigm of complexity and complex thought للفيلسوف الفرنسي "إدغار موران" (Edgar Morin 1921م)، ويُشاركه نفس

الهمّ بخاصة النقدي منه مواطنه "روني غينون" René Guenon (1886_1951م) صاحب مشروع نقد المادية الصاعدة المتبوعة بروحانية نازلة، في رفضهما للرؤى والمناهج الاختزالية التي تُقصي المعارف والمفاهيم والتصورات والاعتقادات المختلفة عن طبيعتها. إذن، يطال الاتهام المنهج المادي الخالص المتسبب في أزمة فُقدان المعنى، "فأزمة علم ما لا تعني سوى أن علميته الحقّة؛ أي الكيفية التي حدّد بها مهمّته وأنشأ بها المنهجية الكفيلة بإنجاز هذه المهمة، أصبحت بأكملها موضع سؤال" (هوسرل، 2008، صفحة 41). فالبين أن مكمن الأزمة إنما هو منهجي، من جهة تحديد المهمة ومن جهة ثانية إنشاء المنهج لإنجازها، ليتحوّل بتمامه إلى نقطة قلق لل سؤال، ويُمكن تفسير هذا الانكباب حول مُساءلة المنهج عند وقوع الأزمة، بوصفه عصب العلوم والمعارف، تتجلّى وظيفته في نقد السائد وفي بناء الجديد لتجاوز القديم الحاضر المتأزم. ويجدر التنويه على سبيل الإنصاف، أن "هوسرل" ورغم انتقاداته للموجة العلمية الحديثة العمياء، غير أنه يعترف بإنجازاتها ومساهماتها، فالتجريبية أحقّ بالثناء، هي نزعة جذرية للمعرفة العلمية، سجّلت مُعارضة للأصنام وقوى التقاليد والخرافة، ونازعت الأحكام المسبقة البدائية والظلامية (هوسرل، 2008، صفحة 61). فالعقل العلمي الحديث المدعوم بأسس فلسفية على اعتبار استحالة ترك الدعم الفلسفي، فتح آفاق تطويرية أمام العقل وشقّ سبل كثيرة مُثمرة للإبداع والإنتاج، واستنطق قُدراته وشجّعه على الجرأة في المناقشة والبحث والدراسة والتجريب، بعدما عانى الحجب والتكيبيل وظلام البراقع في فترة العصور الوسطى، ولو أن بعض الدراسات المستجدة ذهبت مذهب القول بأن القرن الوسيط قد عانى بدوره الظلم ولم يكن ظلامياً في كليته. وبالرجوع إلى أزمة العلوم الأوروبية؛ أزمة الضمير، فإن رؤية الإنسان الحديث للعالم حُدّدت من طرف العلوم الوضعية وحدها، وتحدّدت كلّها في النصف الثاني من القرن 19م، واندهشت بالتقدّم والازدهار الناجم عن هذه العلوم، ممّا أحال إلى لامبالاة عن الأسئلة الحاسمة لكلّ بشرية حقّة. فالعلوم التي لا تُعنى إلاّ بالوقائع تصنع بشرًا لا يعرفون إلاّ الوقائع (هوسرل، 2008، صفحة 44)، فالوضعية التجريبية حكمت قبضتها على التفكير العلمي الحديث، لدرجة أن البعض من الفلاسفة على غرار الفرنسي "أوغست كونت" Auguste Comte (1798_1857م)، والإنجليزي "جون ستيوارت ميل" John Stuart Mill (1806_1873م)، استدعت منهجها لتدأرك تأخر العلوم الإنسانية في مُقابل تقدّم العلوم التجريبية، ولكنها أفضت إلى خناق منهجي سيّجت الرؤية الإنسانية الحديثة للعالم بسياج وضعي، ممّا تسبّب في نُفور وعُدول عن الأسئلة الجوهرية المصيرية للبشرية للحقّة، والعلوم التي تحصر نطاق اهتمامها في حيز الوقائع تُنتج بشرًا ليس لديهم معرفة بغير الوقائع، جاهلين بمعرفة الذات والشعور والوعي واللاوعي والحرية والتفكير وغيرها من المهمّشات الغائيات في ظلّ حضور تجريبي فقط، فالعلم الذي يدرس الأجسام المحضة فقط، ليس لديه ما يقوله نُجّاه العقل واللاعقل، عن البشر كذوات لهذه الحرية، فهو يغضّ النظر عن كلّ ما هو ذاتي (هوسرل، 2008، صفحة 45). فحينما يأسر العلم اشتغالاته وبحوثه واهتماماته في فضاء الأجسام المادية، فإنه لا يملك ما يقوله بالنسبة لأسئلة العقل واللاعقل، فهي تتعدّى مُستوى الحسني العياني إلى الشعور والتفكير، من

مُستوى الكائنات إلى مُستوى الكيانات، إلى الذاتية التي تتطلّب منهجًا يتمشّي وطبيعتها يحتويها ويُغذيها، يفهمها ويُبيها وليس يُهمّلها فيُقصيها، والعلم الوضعي يغفل عنها ويتجاهلها، بالتالي لا يملك ما يقوله عنها. غير أنّنا لا نُوافق أن منظومة العلم الحديثة والعقل المفكّر في تلك الفترة كان ماديًا خالصًا، فهناك فلاسفة وعلماء درسوا الرياضيات والفيزياء وكانت لهم اهتمامات قيّمة بالجانب الذاتي والعقلاني واللاعقلاني على سيرة الذكر لا الحصر الفيلسوف الفرنسي "بليز باسكال" (Blaise Pascal 1623_1662م) إلى جانب كونه فيزيائي ورياضي له إسهامات علمية قيّمة، في كتابه: أفكار les pensées يتحدّث بأسلوب شاعري عن الإنسان العاقل والمجنون، عن الواحد والمتنوع، عن الأسئلة الحاسمة التي يقفز عنها المنظور الوضعي البحث. ومهمًا يكن سيُنتج عن هذا الإهمال والرفض العلمي، خطر "علّته أن هذه المعاداة ستعوق علوم التأسيس الاستماهي التي تحتوي عليه هذه العلم، وهي ربما ستعوق تكوين علوم استمهائية جديدة ضرورية لا يُمكن لتقدّم العلوم التجريبية أن يستغني عنها" (هوسرل، 2008، صفحة 60)، فالنزاع ضدّ الماهيات والجواهر بما يتم إدراكها بواسطة الالتفات إلى الذاتية والعقل واللاعقل وربط التفكير بموضوع التفكير، سيُولد عوائق أمام تأسيس العلوم الاستمهائية التي تحتاجها العلوم التجريبية ذاتها، فالماهيات تُكسب معارف أدقّ وأكثر صرامة وشمولية للعلم التجريبي، ولكن ينبغي بدورها أن تفتح وتتواصل معه، كي لا تفرق في المثاليات والتجريدات المفصلة عن التجريبات. ومن نقد العلوم التجريبية والرياضية إلى نقد العلوم الإنسانية المتجسّدة أزمتهما في السيكلوجيا.

2.1 استغراق السيكلوجيا في علم الوقائع

يحضّل وأن يخرج "إدموند هوسرل" من تحت عباءة الاتجاه النفسي مُتحوّلًا نحو الاتجاه المنطقي، وهذا من شيم الفيلسوف؛ إذ تعودنا على الانتقالات الفلسفية من نزعة إلى أخرى؛ وذلك بحسب تغيّر القناعات وتبدّل الرؤى والمفاهيم والتصورات تبعًا لقوّة الحجّة. لكنه يرفض أن يرسم قطعة بينهما؛ أيّ بين المنطقي والنفسي، فيُصرّح في بعض المواضع وبالاعتماد على نُصوص فلسفية أخرى في مؤلّفه: مباحث منطقية، مُقدّمات في المنطق المحض، الكتاب الأول، ويُبوّه إلى العلاقة الوظيفية التي تصلّهما، وإن تكن الحدود التي تُثبتها للمنطق المحض ضيقة، إلاّ أنه لا يُمكننا استبعاد النفسي، فهو مُناسب سلفًا للأفاهيم التي تُكوّن القوانين المنطقية، مثل: الإثبات والنفى، المبدأ والنتيجة (هوسرل، 2010، صفحة 87)، فالتحوّل الذي قام به لم ينفي أهمية النفسي بالنسبة للمنطقي، وبالتالي يجب فهم طبيعة هذا الانتقال حتى لا نقع في سوء فهم لموقف "هوسرل"؛ إذ يُؤكّد على أن "التفكير المنطقي على أساس من التفكير النفسي" (هوسرل، 1958، صفحة 15)؛ بمعنى أنه يُشكّل أرضية تتأسّس عليها الأفاهيم الرئيسية التي تُكوّن قوانينه. ولكن السيكلوجيا وهي مُتأثرة بصعود النزعة التجريبية، وقعت في السقطة المنهجية كبقية العلوم الحديثة وأهملت الجانب الشعوري الداخلي. يتفق الجميع بأنّها علم الوقائع، وأنّها مُستمدة من التجربة، ولن تُثير مُناقضة أكبر فيما لو أضفنا. وهي لا تزال لحدّ الآن تفتقر إلى قوانين صحيحة ومنه دقيقة، والقضايا التي تخلع عليها إسم قوانين، لا تُمثّل

سوى تعميمات للتجربة، يُمكن أن تكون ثمينة جدًا، لكنها ومع ذلك غامضة (هوسرل، 2010، صفحة 95). فالسيكولوجيا علم الوقائع؛ معنى ذلك أنها تُحدّد نظرتها في سياق واقعي خارجي، وتتم بتسجيل المعطيات الظاهرة العيانية، وتُضيق نطاقها في كلّ ما هو وضعي، فهي على حسب الجميع منشأها من التجربة، تكفي بمجموعة تعميمات وتُطلق عليها لفظ القانون، وقد تكون ثمينة للغاية لكنها غامضة تفتقد للدقّة. وأبرز مثال على نُزوع السيكولوجيا الوضعي، ما تأسّس تحت اصطلاح علم النفس التجريبي، الذي تحوّل نحو المخابر لقياس مشاعر الفرح والحزن والغضب وقياس الذكاء والتذكر وغيرها، وكأنها قابلة للتكميم والعدّ والحساب وهي التي تتمتع بطبيعة تجعلها عصية عن ذلك، فالتوجّه التجريبي لعلوم السيكولوجيا جعلها موضع نقد من طرف "هوسرل"، فلقد حصرت اهتمامها في تسجيل الوقائع وقياسها، من دون أن تُعبر العُني للعالم الداخلي الشعوري الماهوي. وفي مُقابل علم الوقائع، يوجد علم الظاهريات الخالص أو المتعالي، سيؤسّس باعتباره علم ماهيات Wesenswissenschaft أو علمًا استمهائيًا Wissenschaft eiditische وليس علم واقعات (هوسرل، 2008، صفحة 22). فالماهية هي جوهر البحث الظاهرياتي كمتقصد وقصد له، وهي لا تتعيّن في الفضاء الخارجي الوضعي، بل تتموّع في الفضاء الشعوري الحيّ، ويجب أن لا نفهم ذلك الانفصال بين الحسّ والشعور، إنما نفهم التواصل والاتصال، ولكن إدراك الماهية يكون على مُستوى علم الظاهريات المتعالي وليس الواقعات. أمّا فيمّ تعلق بالفلسفة في كنف هذا الانسداد المنهجي والإفقار الدلالي كدافع لحدوث أزمة العلوم الأوروبية، فإنها عانت بدورها من هذا الحال المتأزم وأحلّ شكوك بخصوص أهميتها ونجاعة مناهجها الكثيرة.

2. الفلسفة ومضائق الجدل، كيف السبيل إلى الرخابة؟

تعدّى الأزمة في تشخيصها الهوسرلي مَدَى العلوم الطبيعية والرياضية والإنسانية "السيكولوجيا"، إلى أن تشمّل الفلسفة، كمتضرّر أكبر من الانسدادات المنهجية والطرائق المتضاربة التي يتّخذها الفلاسفة في طرح أفكارهم والسعي إلى الإقناع بها. وحينما تأمل وفحص "إدموند هوسرل" حال الفلسفة في عصره، وجد أنها عبارة عن مذاهب وتيارات مُتصادمة، تحتوي مزلق منهجية وتماثلات كبيرة، فالجدل الحاصل فيمّ بينها تحوّل إلى جدال وعناد تنطلق من اختلاف وتنتهي إلى خلاف من دون تسجيل إضافات وإسهامات قيمة تُثبت أهمية الفلسفة وقيمتها؛ لأن كلّ فيلسوف ينتصر لرأيه بشكلٍ مُطلق ويتوسّم الحقيقة فيه، ويختار لأجله منهجًا يُطلقه على أنه الأصوب، بالتالي لا وجود لانفتاحات فلسفية ولا استثمارات ناجعة. غير أن هذا الحُكم على سلبية الجدل فيه نوع من المغالاة، فالفلسفة قوامها التنافس الفكري والاختلاف كلّ حسب رؤيته للعالم، ثم إنها تُعالج القضايا والإشكالات بضربٍ من المخصوصية ممّا يجعل التنوع المنهجي أمرًا طبيعيًا، وهذا ما يترك الجدل في ديمومة من الحُضور. سنفهم من موقف "هوسرل" أنه ينتقد الدوامة اللامتناهية لانبثاق التيارات الفلسفية وانبعثت مناهج في كلّ مرة، بوصفها عائقًا أمام ثبات الفلسفة واهتدائها إلى منهج قويم تُراهن عليه ويضمن الاستقرار لها؛ إذ خَلّف هذا التضارب ردّة فعل ناقدة بل ورافضة من النزعة التجريبية التي شهدت

تنامياً كبيراً، فعملت على التقليل من العنصر الإنساني على نحوٍ عام وتدقُّور الفلسفة على نحوٍ خاص، فأصبحت الفلسفة تبعاً لهذا الموقف تتوقَّف عند كونها مجرد نظريات فردية مُتهافتة، يزعمُ أعضاؤها التجريبيون بأنها مُشكلات تأملية لا حاجة قِيمة للإنسان إليها كمثَّل حاجته إلى العِلْم التجريبي (محمد، 1991، صفحة 116)، الذي اختار لنفسه منهجاً واحداً وهو المنهج الاستقرائي الذي حقَّق له نجاحات كثيرة، إلى درجة أن استفز الفلاسفة وجعلهم يدعون إلى سحب العُلوم الإنسانية إلى ميدانه، وهذا طبعاً ما سيعترض عليه "هوسرل" وغيره، نظراً لخصوصية الظاهرة الإنسانية وأن السبيل الاستقرائي الكمي سيقتل روحها وسيُضيِّع الحقيقة، ومنه ما اقترحه مواطنه الفيلسوف "فلهم دلتاي" Wilhelm Dilthey (1833_1911م) من ضرورة تغيير الوجهة المنهجية من التفسير إلى الفهم Understanding. وتبريراً بالكثرة المنهجية والآراء الذاتية والنظريات الفردية، وجد العِلْم التجريبي مُناسبة لدحض قيمة الفكر الفلسفي بالنسبة للإنسان، فهو لا يعتدُّ سوى بالفكر العِلْمِي الوضعي الحسِّي، الذي يترك آثار ملموسة ودقيقة لا تحتمل التأويلات. غير أن هذه المعادة ليس في صميمها من مشروعية بمكان، فلا يُمكن للفلسفة أن تغيب ولو في حُضور عطب منهجي، فالعُلوم التجريبية ذاتها بحاجة إليها، إلى حسنها النقدي وأسئلتها المستمرة وتحليلاتها وتركيباتها حتى تتمتع منها طاقتها، ثم إنَّها لا تستطيع أن تحرز تقدِّمات جديدة من دون أن تنتقد حُدودها ومداها، يُضاف إلى أن هذا الثُغور العِلْمِي التجريبي من الفكرة الفلسفية في العصر الحديث سيعرف انقلاباً في الفترة المعاصرة لتكون أمام دعوات صريحة بحوار العِلْم والفلسفة. وفي سياق نقد "هوسرل" للوضعية المنهجية للفلسفة، يُصرِّح: "أنا لا أقول إن الفلسفة عِلْم ناقص، بل أقول ببساطة أنها ليست بعد عِلْمًا، وأنها لم تخطو بعد حُطوتها الأولى عِلْمًا" (هوسرل، 2002، صفحة 24). يبدو أن الفلسفة تزرع تحت وطأة الجدل المنهجي المكتف، وأن كثرة النزعات والتيارات والمذاهب لم يتركها تتقلد صفة العِلْمية من الدقَّة، وأنها لم تهدي بعد إلى المنهج الصحيح الذي سينخرط بها في مجال العِلْمية، فالخلل كُلُّه على مُستوى المنهج والإصلاح من جنسه. والأكثر من هذا، أن الأمر في الفلسفة لا ينتهي عند امتلاكها نسقاً من التعاليم يتسم بالثِقص ولا يكون قاصراً إلا في حالات مخصوصة، بل هي لا تمتلك مثل هذا النسق على الإطلاق، ويرجع ذلك إلى أن كل شيء في الفلسفة هو موضوع للجدل، وكل موقف يُصبح مسألة اقتناع شخصي، أو تفسير مدرسة، أو رؤية مُعيَّنة (هوسرل، 2002، صفحة 24_25). بهذه الفوضى المنهجية والنزوع الذاتي والتعصّب للرأي تغدو الفلسفة بلا نسق من التعاليم تتفق حولها، فالنسقية مشروطة بالوحدة والاتِّفاق والاستقرار والانسجام بين المنطلقات والنتائج المتوصِّل إليها، وبسبب الكثرة والاختلاف والتغيّر وغياب التوافق يسقط النسق. هذا بالنسبة للفلسفة بشكلٍ عام ولطبيعة العلاقات الفكرية بين الفلاسفة، لكن نرى أن نسق التعاليم موجود ضمن التيارات والمذاهب، على سبيل المثال: اتَّسمت فلسفة "هيجل" Hegel (1770_1831م) بالنسقية، تمحَّورت كُلُّها حول فكرة الروح المطلقة، وكذلك بالنسبة "لكانط" Kant (1724_1804م) والفلسفة النقدية وقبلة "لديكارت" والأنا المفكِّرة، وقد وُصفت فلسفات: "سقراط" Socrates، "أفلاطون" Plato

(427_347 ق.م) و"أرسطو" Aristotle (322_384 ق.م) بالأنساق الكبرى، بالتالي فالنسق غائب بين الفلسفات وعلى صعيد الفلسفة بمنظورية عامة، لكنه حاضر داخل الفلسفات وتعاليمها. وبعد أن اخترق الأزمة الفلسفية وفهم مَكْمَنَها، جاء الدور على التجاوز، تجاوز هذا الوضع المتأزم الذي تعيشه الفلسفة والذي أَدْفَعَهَا ثَمَنَ التراجع، طرح "هوسرل" مشروعه الفلسفة علمًا دقيقًا La philosophie comme science rigoureuse بوصفه المخرج من المضائق إلى الدخول في الرحابة، "ففي سنة 1911م، نشر في العدد الأول من مجلة لوغوس (Logos) مقالاً بعنوان: الفلسفة كعلم صارم. هذا العنوان يُلَخِّصُ تصوّر "هوسرل" للفلسفة. في مُقَابِلِ التَصَوُّرِ الرَّائِجِ آنذاك، الذي يَحْتَرِلُ الفلسفة إلى مجرد رؤية للعالم ليس من حقّها أن تطمح إلى العلمية أو أن تدعي صلاحية تتعدّى شرطيتها التاريخية، يرى "هوسرل" أن مُهِمَّةَ الفلسفة هي إنشاء معرفة صارمة ومُتَحَرِّزَةٌ جذريًا من كل الآراء والأحكام المسبقة" (هوسرل، 2008، صفحة 13). فالإرادة مكشوفة الملامح هنا وهي ردّ الاعتبار للفكر الفلسفي بعد الأحكام التعسفية التي طالته من العلوم التجريبية وحتى فلسفات الوضعية المنطقية والفلسفة التحليلية اختزلت دور الفلسفة، بالنسبة للأولى ضيّقت مجالها في نطاق فلسفة العلوم ومنعت انسيابية المعنى بإصرارها على تحقيق المعنى، والثانية اختارت لها مُهِمَّةً واحدة وهي المراقب الحارس للألفاظ، فهَمَّ "هوسرل" إلى تغيير التَصَوُّرِ الشائع عنها باعتبارها مجرد رؤية للعالم لا تملك الحق في الطُمُوحِ العلمي، إلى تصوّر يُقَدِّمُ لها مُهِمَّةً جديدة وهي تكوين معرفة صارمة وضعت الآراء والأحكام السابقة بين قوسين وتحرّرت منها. ويُضِيفُ أنه بإمكانها أن تتفوّق على العلم ذاته، في الدقّة والصرامة والوصول إلى اليقينيّات والحقائق الكليّة. فالصرامة هي الصفة الجوهرية المراد إرفاقها بالمعرفة الفلسفية، غير أن الصارم هو الثابت المنتظم والدقيق، وهذا ما يتناهى والروح الفلسفية التي تُسَائِلُ موضوعات وإشكالات لا يُمكن البث فيها بصرامة، فهي ليست على نحو العلوم الدقيقة، وبالتالي ما مدى مشروعية طلب الصرامة؟. والحقّ أن هذا المطلب الهوسرلي ليس وليدًا معه أو لصيقًا به؛ بحيث يرتبط بإسمة دون غيره على الإطلاق، بل كان المطلب الدائم للفلسفة وهذا بشهادته هو نفسه، فمُنذُ بداياتها الأولى أعلنت طُمُوحها بأن تكون علمًا دقيقًا، بل أن تكون ذلك العلم الذي يستطيع أن يفي بأعمق المقتضيات النظرية للعقل (هوسرل، 2002، صفحة 23). فهناك طُمُوح فلسفي مُشترك على مدار العصور المتلاحقة، فالعودة الفاحصة ستبيّن لنا كيف أن عديد الفلاسفة منذ العهد اليوناني كان مطلبهم إنشاء فلسفة صارمة تُدرِكُ الحقائق الكليّة، لكن الفرق يكمن في المنهج الذي اقترحوه لذلك، فجعلهم يتفوقون في المطلب ويختلفون في طريقة تجسيده، ومنهم "هوسرل" صاحب المنهج الظاهري أو الفينومينولوجي كشرط رئيسي من مشروعه.

4. خطوات المنهج الظاهري

ترتبط الظاهرية أو الفينومينولوجيا "بماهي نظرية عامة في الماهية التي يدخل فيها علم ماهية المعرفة" (هوسرل، 2007، صفحة 32) كما تأتي في السياق التعريبي، باسم "إدموند هوسرل"، رغم حضورها السابق في كتابات بعض الفلاسفة أمثال: "كانط" و"هيغل"، إلا أن الفضل يعود إليه في التأسيس الفعلي لها،

فكانت همّة الفيلسفي ولأجل ذلك وضع خطوات منهجه؛ المنهج الظواهري، كحلّ لأزمة العلوم الأوروبية وبالأخص للفلسفة لإعادة الأهمية إليها وإضفاء صفة العلمية عليها لتتجاوز العلم ذاته. وتتمثّل خطوات المنهج الظواهري في التالي:

أـ "أولى الخطوات هي البدء بقضايا موضوعية نقبلها جميعاً دون أدنى شكّ، لنقيم معرفة ضرورية يقينية مطلقة، ولتوفّر هذه القضايا شرطان، بعدها عمّا هو تجريبي، وحلّوها من أيّ فروض سابقة أو أحكام سابقة مهما كانت راسخة" (زيدان، 1997، صفحة 73). فالعلم الكليّ اليقيني يتحقّق باستبعاد أيّ عناصر مؤثّرة تزرع الشكّ Doubt وتفسد المعرفة المطلقة، ولهذا جعل "هوسرل" الخطوة الأولى هي قبول قضايا موضوعية من دون أيّ نزعة شكّية مُجاهها، ممّا يتطلّب أن يتم عزلها عن كلّ ماهو تجريبي، وتنقيتها من الفروض والأحكام والاعتقادات السابقة مهما كان قدر رسوخها لدينا. لكن على أيّ أساس يتم قبول القضايا الموضوعية؟ بالأحرى ما هو معيار موضوعيتها؟ وماهو منشأها؟ نفهم أن الاعتقاد أو الفرض سيكون مهما حاولنا استبعاده، ذلك الذي سيُصنّف القضايا على أنّها موضوعية.

بـ ثاني الخطوات، تحسّس القضايا اليقينية في الشعور وأفكاره، أو في الذات وخبراتها، مثل: اتذكّر الإدراك، التخيل، الوجدان، الرغبة، الشكّ، الاعتقاد والحكم. لا وجود لأيّ شكّ في أن هذه الخبرات توجد في وقت معاناتي لها، ولا تحتوي هذه الخبرات على أيّ حكم وفرض سابق، إلّا وجودي كشعور. تلك الأفكار مُعطيات مُباشرة، وهي الظواهر بالمعنى الدقيق (زيدان، 1997، صفحة 73)، فالمعارف الكليّة اليقينية موجودة في الشبكة الشعورية الداخلية، وخبرات الذات من مختلف العمليات العقلية النفسية، التي توجد في وقت معاناتها؛ بمعنى فحوصها، فالهدف هو إدراك ماهيتها الذي لا يحصل بسهولة ويُسر، وهي لا تتضمّن أيّ فروض وأحكام سالفة، إلّا الوجود كشعور، بوصف تلك الأفكار مُعطيات مُباشرة، ما يُعطى لنا دون واسطة، وهي عين الظواهر بدلالة الدقّة. وقد تضمّنت الخبرات عمليات عقلية ونفسية معاً كالإدراك والرغبة مثلاً، ليُحيلنا هذا الأمر إلى وصولية النفسي والمنطقي عند "هوسرل". والحديث عن عملية العزل هي ما يُسمّى بالوضع بين قوسين أو تعليق الحكم Epoché أو الرّدّ Reduction والتحوّل نحو المعاناة في عمق الشعور الحيّ، والردود الظاهرية نوعان؛ الأولى الرّدّ الظواهري المتعالي Transcendental phenomenological reduction، الذي أعزل فيه كلّ ماهو طبيعي مادي وأضعه بين قوسين، وأقوم بتعليق الحكم عليه لفترة مؤقتة، حتى أتخلّص من الاندهاش به والاستغراق فيه، من ثم أستطيع توجيه خاطري حينها إلى شعوري الداخلي وإلى فعل الإدراك نفسه. أمّا الثانية فهي الرّدّ الصوري الماهوي Eidetical – essential reduction، أقوم في خصمّه بإدراك الصور العقلية والماهيات الحقيقية للأشياء كما تتبدّى حيّة في الشعور، وكما يُتيح بالفعل للمعرفة اليقينية الثابتة أن تتحقّق لكلّ الحقائق الممكنة (محمد، 1991، صفحة 141). فالرّدّ المتعالي القصد منه حجب الموقف التجريبي والفروض السابقة والأحكام الماضية لمُدّة زمنية مؤقتة، والارتداد نحو العالم الشعوري الباطني، ونحو الإدراك لمعاناة موضوعات التفكير والتماس ماهيتها، والرّدّ

الصوري الماهوي وتحسّس الصور العقلية وماهيات الأشياء في مجرى الشعور المتدفّق، دائماً من أجل إقامة معرفة يقينية ضرورية دقيقة.

ت_ ثالث الخطوات تتمثّل في تحليل الأفعال العقلية كخبرات مُوجّهة Mental acts as intentional، وتتعيّن هذه الأفعال في أفعال الشعور، أو تفكير "ديكارت" بالمعنى الأوسع، وفي كل فعل عقلي يكون مُوجّهاً نحو موضوع ما قاصداً إليه، ولا يوجد فعل بلا موضوع، مهماً كانت طبيعته، سواء كان إدراكاً حسياً، أو تذكراً، أو رغبة (زيدان، 1997، صفحة 74). هنا بالضبط تظهر الإضافة التي قدّمها "هوسرل" في حقل الفينومينولوجيا رغم التناول الفلسفي الأسبق لها، وهي فكرة القصدية، فالتفكير أو الشعور يقصد موضوعه، ومنه الكوجيتوه الجديد: أنا أفكر في شيء؛ بمعنى ربط التفكير دوماً بموضوع يقصد ويتوجّه إليه، والتفكير بمعناه الديكارتي الأوسع حينما صرّح بأنه يُفكّر، لكن سُعارض "هوسرل" هذا المجال المفتوح غير المحدّد والمنظّم من التفكير الديكارتي، فيضبط بالقصدية، فيصبح كل تفكير، إنما هو تفكير في شيء ما، ولا يُمكن أن يوجد فعل بلا موضوع يقصده. فالمعيشات والتجارب المعرفية وبحسب طبيعتها تتضمن القصد Intentio؛ أي أنها تتوجّه قاصدة شيئاً ما، وتتعلّق بهذه الصيغة أو تلك بموضوع (Husserl, p. 41). فالقصدية بديهة في المعيشة المعرفية، فهي تحتضنها بل تتصل بها كجزء منها، والقصد رابط جوهري بين الذات والموضوع، وهو الجسر الموصل بينهما، وبهذا فإن "هوسرل"، ينتقد الثنائية الديكارتية التي أحلت فصلاً بين التفكير وموضوع التفكير، باعتمادها الكلي على الأنا المفكّرة بوصفها مُنتجاً للمعرفة وأن الواقع مُستغرق في الفكر بشكل تام، وفتحت التفكير أمامها من دون تحديد ولا توجيه كونها قاصدة في ماذا تُفكّر، ليُعلن فيلسوف القصدية عن ضرورة الوصل بتوصيفه بديهة بدل الفصل التعسفي الخارج عن طبيعة المعيشات المعرفية.

ث_ رابع خطوات المنهج، يأتي كهدف للخطوات السابقة، وهو وصف للماهيات، نبحث عن وصف يُوضّح ما هو مُعطى أماننا ومُجلّله دون أن يتدخّل الشرح بالقوانين أو التفسير أو الاستنباط من مبادئ تُصادر عليها أو فروض وأحكام سابقة. وماهية شيء ما هي المعرفة الضرورية عنه، فماهية الشيء المادي هي التحديد المكاني والزمني واكتسابه لشكل مُعيّن، أمّا الشعور فماهيته هي أنه دوماً شعور بشيء ما، والحقائق الرياضية والمنطقية الصادقة دائماً هي ماهياتها، ولكلّ شيء ماهية؛ إذ يُمكن التحدّث عن ماهيات التخيل، التذكّر والإدراك، وماهيات الإنسان، اللون والصوت وغيرها (زيدان، 1997، صفحة 74). فالخطوة الأخيرة وهي في غاية الأهمية باعتبارها خلاصة الخطوات التي سبقتها وهي المسعى المنشود منذ بداية عمل الظواهرية، تتمثّل في وصف الماهيات في مجرى الشعور الحيّ، وصفاً مباشراً كنتاج عن تحايط الشعور وموضوعه، بعيداً عن وصايات الفروض والمبادئ والاعتقادات، التي تُشوّه الحقيقة وتمنع تأسيس معرفة كلية ضرورية دقيقة، وتبني خطوة الوصف على الحدس Intuition، كتجربة شعورية، فالمعطى أماننا من موضوعات، يعطي حدسياً في شكل معيشات معرفية أو معيشات الوعي. فالمعارف بهذه الصورة هي خبرات قاصدة، وهي

مُعطيات لا تعترض مسارها أي أحكام فوقية أو تحتية، والبديهي هو المتفق عليه، ومنه يُمكن صياغة معرفة مطلقة ثابتة. ولكن إذا كانت البدايات محلّ اتفاقات، غير أن تعاطي الذات مع الموضوعات وهي مُوجّهة وقاصدة يختلف، فالقصدية في نهايتها خيط ناظم بين الذات وموضوعها، ونحن نقصد الموضوعات بكيفيات مختلفة لكلّ منا حقله الدلالي، فيلّي أيّ مدى يُمكن التحرّر من الفروض والأحكام المسبقة؟ وهل في وسع المعطيات المباشرة بما تحمله من معاني أن تؤسّس لمعارف كليّة ضرورية؟

5. امتداداته في الفكر العربي

لأن فضيلة العلم والمعرفة هي التراكم، والأفكار تأتي الانحسار في عالم مُفكّرها، فإنها تعبر قارات المعتقد واللغة والتاريخ والجغرافيا والزمان، هذا من جهة، ومن جهة ثانية لقد طرق الفكر العربي المعاصر سؤال المنهج بقوّة، بتبرير أنه مفتاح الخروج من حالة التأزم التي دخل في نفقها العقل العربي، فانفتح مُفكّروه على المناهج الغربية واستجلبوها وأعلنوا عنها بل وأقاموا مشاريع فكرية تضمّنتها كمنطلق وكنواتج، لتُخلف هذه الممارسة موجة من النقاشات والمواقف المتضاربة بالخصوص حول من استجلب ولم يفحص ولم يُدارس برعاية وعناية. وبالعموم، نُسجّل توافداً للمنهج الغربي في السياق الفكري العربي، ومن بينها المنهج الظواهري / الفينومينولوجي، الذي نرى أنه لم ينل حظاً كبيراً لدى المشتغلين بالفلسفة والفكر والثقافة في العالم العربي على شاكلة المنهج الأركيولوجي أو البنوي Structural مثلاً، إلاّ مع جهود المفكّر "حسن حنفي" Hassan Hanafi (1935_2021م)، الذي يبرز كعلامة على حضور المنهج الظواهري، حينما رأى أنه أفضل المقاربات المنهجية لحلّ أزمة العقل العربي المسلم، فنقله من حيز الاستمولوجيا والمعرفيات واتّخذ طريقة للتحليل والنقد والبناء ضمن حيز الوجود والقيم وسؤالَي الإنسان والدين.

خاتمة:

في نهاية هذه الورقة البحثية، كنهاية ظرفية مُؤقتة تنتظر التثمين ببحوث جادة تُصحح لتطوّر، نصّل إلى التأكّد من كون سؤال المنهج يُمثّل مُناسبة رصينة ومُثمرة للتفلسف، ومنه أزمته التي شكّلت دافعاً لاجتراح مناهج جديدة والتفكير في حلّ الأزمة المنهجية من خلال مفتاح المنهج ذاته. مثلما كان عليه الشأن بالنسبة للمنهج الظواهري عند "إدموند هوسرل"، فبعد الفراغ من نقد حالة العلوم الأوروبية وتغرية أوجه الأزمة، انتقل إلى البناء وراهن على المقاربة المنهجية الظواهريّة من أجل تحقيق الهدف المنشود وهو إدراك الماهية، وتصويب مسار الفلسفة نحو جعلها علماً دقيقاً. والنتيجة دائماً هي العلاقة المتداخلة بين الفلسفة والمنهج، الأولى كعقل مُفكّر والثاني كموضوع للتفكير وكأداة له في ذات الوقت.

النتائج والتوصيات

1. نظراً لقيمة الاشتغال المنهجي في حلّحلة الأزمات، واستناداً إلى الافتقار العربي للدراسات الإستمولوجية والمنهجية، ينبغي أن تعي الشريحة المنتمة إلى حقل الفكر والبحث والثقافة أهمية

تكتيف الجهود لدراسة المنهج خاصة في مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية، التي تُعاني اعتلالات بيّنة على الرغم من أهميتها الفارقة، وأن نجوعه في تأصيله وليس في ترحيله، فحتى وإن وقع الترحال كان من الوجوب إحداث التوافق مع مخصوصية اللغة والمعرفة والعقيدة، فإنها مُتكاملات وليست مُتفاضلات.

2. إن الإبداع لا يتحقق من غير رسم قطيعة مع الاتباع في شكّله الفاقِد لأيِّ محاولات الغرلة والتميز والنقد، والمنهج كطرف جوهري في إرساء دعامة مُبتغى المبدع، وبالتالي يجب بإصرار أن يحدث الوعي العربي بضرورة الخلق المنهجي الرصين، والتحوّل إلى الفعل؛ لأن أزمنا الحقيقية في تلك الهوة الجارحة بين ما نُحطّط له ونُنظّر وبين الواقع الممزق من جميع النواحي، أخصّها الناحية المنهجية والدراسات المعرفية.

Bibliography

1. Durti, Jean-François and others, Philosophies of our time, their trends, doctrines, figures and issues, trans. Ibrahim Sahrawi, 1st ed., Dar Al-Arabiya Publishers, Ikhtilaf Publications, Beirut, Algeria, 2009.
2. Zidan Mahmoud Fahmy, Methods of Philosophical Research, (n.d.), General Egyptian Book Organization, Alexandria, 1977.
3. _ Muhammad Samah Rafi, Phenomenology in Husserl, a critical study of contemporary philosophical renewal, 1st ed., Dar Al-Shu'un Al-Thaqafiya "Arab Horizons", Baghdad, 1991.
4. _ Husserl, Edmund, The Crisis of European Sciences and Transcendental Phenomenology, trans. Ismail Al-Musaddiq, 1st ed., Arab Organization for Translation, Beirut, 2008.
5. _ Edmund Husserl, Introductory Ideas for Pure Phenomenology and Phenomenological Philosophy, trans. Abu Ya'rub Al-Marzouqi, 1st ed., Jadawel Publishing and Distribution, Beirut, 2011.
6. _ Edmund Husserl, Philosophy as an Exact Science, trans. and introduction: Mahmoud Rajab, 1st ed., National Translation Project, Beirut, 2002.
7. _ Edmund Husserl, Cartesian Meditations or Introduction to Phenomenology, trans. Tayseer Sheikh Al-Ard, (n.d.), Beirut Printing and Publishing House, Beirut, 1958.
8. _ Edmund Husserl, The Idea of Phenomenology, trans. Fathi Inqazou, 1st ed., Arab Organization for Translation, Beirut, 2007.
9. _ Edmund Husserl, Logical Investigations, Introductions to Pure Logic, trans. Musa Wahba, 1st ed., Arab Cultural Center, Beirut, 2010.
10. _ Edmund Husserl, The idea of phenomenology, a translation of die idée der phänomenologie husserliana II, translation and introduction by lee hardy, editor rudolf bernet, kluwer academic publishers, Dordrecht, boston, London, volume vIII.